السنة الأولى ماستر – أدب عربي حديث ومعاصر

الرواية العربية – محاضرة 04

أ/ سامية إدريس

**الرواية العربية الوجودية**

لطالما عمدت الفلسفة إلى اتخاذ الأدب واجهة لها، وقد لجأت الوجودية إلى الروايات لتجسيم ما تحتوي من الأفكار عن طريق حوادثها وشخصياتها وطرق سردها، "فلم يكن من المصادفة والعبث ميلهم إلى القصة، لأن القصة تقدم وصفا ظاهريا للوجود الإنساني والحالات المختلفة التي تطرأ عليه، وتبدي في وضوح وجلاء محنة الإنسان"، فضلا عن هذا، إن الطريقة التي استخدمها الوجوديون لبيان ما يصعب فهمه على غير المتخصصين، مهّدت الأرضية لكتاب سائر البلدان أن يقلدوا القصص الوجودية وينتجوا آثارا تشبه الروايات الوجودية، مع أنهم لم يكونوا فلاسفة كسارتر مثلا.

تسربت الوجودية كسائر المذاهب الغربية إلى الأدب العربي عن طريق الترجمة والاتصال الثقافي، فجعلته يصطبغ بملامحها في الخمسينات والستينات، "وربما كانت الأفكار الوجودية تحتل مرحلة الصدارة في قائمة المؤثرات الأجنبية، ابتداء من الخمسينات وهي تبدو أكثر بريقا من غيرها من المؤثؤات".

لم تبرز الوجودية كمذهب فلسفي إلا في القرن العشرين، نتيجة تفاقم الأزمة التي خلفتها الحروب العالمية، وبخاصة ماساة الحرب العالمية الثانية التي أدت إلى اتجاهين؛ "الأول: هو الشك في حقيقة تراث الإنسانية الروحي، والثاني: هو إعادة النظر فيما مضى، وفي حقيقة وجود الله والقيم الأخلاقية الخالدة، إذ نشأت الوجودية في فرنسا وفي أوربا ابتداء مزيجا من هذين الاتجاهين كمذهب فلسفي" ارتكز على فكرة أسبقية الوجود على الماهية التي تفرعت عنها مبادئ كالحرية والاختيار والمسؤولية والالتزام.

إن الحرية الوجودية تنبثق عن المبدأ الأول للوجودية وهو أسبقية الوجود على الماهية التي تنحصر على الإنسان دون سائر الموجودات، فالإنسان لا يمتلك ماهية خاصة أو طبيعية محددة، فعليه أن يخلق نفسه بنفسه، فهو يوجد أولا ثم يتحدد بعد ذلك، وهذا التحديد يتحقق دون اي ضرورة أو حتمية عن طريق جملة الأفعال التي تصدر عنه، وعلى أساس ذلك لا يمكن تحقيق هذه الغاية إلا في ضوء التمتع بالحرية. فـ"إصرار سارتر على أن الوجود يسبق الماهية يرجع إلى رغبته في تحرير الذات مما تراكم عليها من قيود المجتمع...، والإنسان يعي حريته حين ينزع نفسه من عادات وتقاليد المجتمع، وهو في هذه اللحظة يحدد موقفه الحاضر، ويتخذ باختياره طريق المستقبل بالتزام حر".

بناء عليه، تجعل الوجودية الإنسان الحر مسؤولا اتجاه أعماله، تنبعث عن كونه حرا. فلا معنى للمسؤولية تحت الجبرية والقدرية. وتتسع دائرة هذه المسؤولية، حيث إن الإنسان ليس مسؤولا عن ذاته فقط، بل على أساس علاقته بالغير والاتصال به، فهو مسؤول عن الإنسانية جمعاء. يقول سارتر: "عندما نقول إن الإنسان مسؤول عن نفسه فنحن لا نعني أنه مسؤول عن وجوده الفردي فحسب، بل هو بالحقيقة مسؤول عن جميع الناس وكل البشر".

لكن الحرية المطلقة المسؤولة قد حعلت الإنسان الوجودي يعاني القلق، لأن الوجودية ترفض كل قيم مسبقة، وتجعل على الإنسان أن يبتدعها، في حين أنه لا يمتلك معايير ثابتة للتمييز بين الصحيح والخطأ. من جهة أخرى فهو عندما يختار كأنما يختار للجميع لكي يقتدوا به، وهو مسؤول عنهم، فلا يمكنه التخلص من هذا القلق الذي يسمى "القلق الوجودي".

حاولت الرواية العربية الوجودية أن توفق بين مقولات الفلسفة الوجودية الغربية بشكل عام، فتناولت المقولات الأساسية فيها وهي الذاتية والإرادة والمسؤولية والقلق والسقوط...الخ، وقد شاع الاغتارب في سائر الأعمال الوجودية.

وقد استخدمت هذه الروايات أسلوب بناء يمزج بين وعي البطل ووعي المؤلف، فمن خلال وعي البطل يقدم الروائي ذلك العالم الوجودي بما فيه من مقولات تستشعرها الشخصية من الداخل، كحالات التمزق الداخلي والقلق والحيرة والضياع أو اللامبالاة وتبلد الاحساس والتمرد والسخرية، وما يمليه ذلك من مواقف على الإنسان الوجودي. ومن خلال وعي السارد يقدم المظاهر الموضوعية لعبثية الوجود في حياد تام من الخارج عن طريق مراقبة نثريات الحياة، وانعدام المعنى فيها.

ومن نماذج الرواية العربية الوجودية **"موسم الهجرة إلى الشمال"** للطيب صالح 1996.

تبدأ رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" بعودة الراوي من انجلترا بعد غربة مادية دامت سبع سنين إلى القرية الصغيرة عند مجرى النيل في السودان، وفي القرية يقابل غريبا آخر "جاء منذ خمسة أعوام، اشترى مزرعة وبنى بيتا وتزوج بنت محمود، رجل في حاله لا يعلمون عنه أكثر من أنه غريب".

وإذا كانت غربة الراوي هنا غربة مادية فقط فإن الغريب الثاني مصطفى سعيد يعيش غربتين: واحدة مادية والأخرى روحية. ومن خلال التقابل بين محاولة الراوي لإعادة صلته بالآخرين بحثا عن بواعث حقيقية للإنتماء ولتحقيق معنى الحياة، وبين غربة مصطفى سعيد وغربة الراوي يبرز التناقض بين الموقفين. فالراوي يسعى إلى الإلتقاء بالآخر والبحث عن الجذور، كان مصطفى سعيد يسعى إلى مزيد من الغربة يعيش من خلالها الحياة دون حماس حقيقي رغم كل النشاطات التي يمارسها بغية ملء الوقت فهو نموذج من النماذج التي تعيش الاغتراب حتى في لقائها مع الآخرين.

نشأ مصطفى سعيد يتيما بلا إخوة، وعاش طفولته غريبة بلا أهل، مما ولد لديه شعورا عدائيا اتجاه الآخر، و"إحساسا دافئا بأنه حر" فلم يكن خاضعا لسلطان ماضي أو لسلطة أب. ويندفع مصطفى سعيد وعيا متحدا بسلسلة الحركات اليومية، ومع هذا لا يعرف الكره أو الفرح، وقد قيضت له الصدفة قوما ساعدوه وأخذوا بيده في كل مرحلة، ومع هذا فلم يشعر نحوهم بأي احساس بالجميل، وكل ما يذكره من خلال وعيه المبلد هذا أن أمه عندما ودعته وهو يتأهب للسفر إلى القاهرة طلبا للعلم، قالت له: "افعل ما تشاء، سافر أو ابق، أنت وشأنك، إنها حياتك وأنت حر فيها". ويعقب مصطفى سعيد على حديث أمه بقوله: "كان ذلك وداعنا، لا دموع ولا قبل ولا ضوضاء، مخلوقان سارا شطرا من الطريق معا، ثم سلك كل منهما سبيله، وكان ذلك في الواقع آخر ما قالته لي، لم أرها بعد ذلك.... وركبت القطار، لم يلوح لي أحد بيده، ولم تنهمر دموعي لفراق أحد، وضرب القطار في الصحراء ففكرت قليلا في البلد الذي خلفته ورائي فكان مثل جبل ضربت خيمتي عنده، وفي الصباح قلعت الأوتاد وأسرجت بعيري".

وتوالت بعد ذلك سلسلة الممارسات اليومية دون أن تزعجها حتى أوفر الانفعالات الإنسانية، فهي حياة رغم ما فيها من أحداث كثيرة: علاقات غرامية، نجاح في الدراسة والعمل، جريمة قتل إذ يقتل أثناء مقامه في لندن إحدى نسائه بعد أن يتزوجها، وتبدو الجريمة والمحاكمة بالنسبة له أحاسيس جامدة عارضة، وقد أدرك ساعتها أن المبادئ الأخلاقية والاجتماعية مستعصية عليه، ويتزوج بعدها ويرزق بأولاد، إلا أن كل ما في حياته من أحداث تؤكد أنها بلا معنى، إنها آلية مكونة من الترديد الآلي للأفعال والأفكار الصغيرة العمياء، لا تتقدم نحو هدف، وإنما تثير الاشمئزاز بما تحويه من دلالة مضاعفة على عزلة الإنسان. يمضي مصطفى سعيد معظم حياته مسافرا، والسفر غوبة تكشف عن مقولة الخوف الوجودي، إذ تجعلنا نستمر بعيدين عن انتمائنا . وحينما فكر مصطفى سعيد في الاستقرار فقد اختار بلدا غريبة عنه وتزوج امرأة غريبة ، وكانت حياته في النهاية في هذه القرية رحلة سفر مرحلاته السابقة، وعند وفاته فهو يكوت غرقا مخلفا شواهد غربته في كتبه ومذكراته.

حاول الطيب صالح أن يستفيد من إطار الغربة المادية وما يمكن أن تعكسه من غربة داخلية في موقف التقاء الحضارتين الشرقية والغربية، وما يتمخض عنها. فمصطفى سعيد والراوي – على مستوى الحدث- نموذجان مختلفان لخروج الشرقي وتعامله من خلال مزاجه وتكوينه الخاص مع أطر الحضارة الغربية ثم انعكاس هذا على موقف كل منهما. فقد حاول مصطفى سعيد أن يصنع شيئا مهما بأن يغزو بشرقيته عمق المجتمع الغربي، وأن ينتقم من سنوات الذل والاستعمار، وانهار في النهاية عائدا إلى قريته في وطنه، يمارس فيها يوميات عادية. أما الراوي فقد قضى سنوات الدراسة محاولا الاستفادة من علم الغرب ما استطاع، وعاد إلى بلاده يبحث عن الجذور والإنتماء الحقيقي.

وعلى هذا المستوى من تفسير الحدث، كان الراوي امتدادا لمصطفى سعيد، لقد مات مصطفى سعيد غريقا في النيل فأنهى أسطورته بيده نهاية مأساوية بعد أن ترك ولدين سيتولى الراوي مهمة استكمال تربيتهما. فمصطفى سعيد من هذه الناحية هو الجيل الأول الذي أربكته عوامل الحضارة الغربية، أما الراوي فهو الجيل الثاني الذي أخذ الأمور بتمهل وحذر، وعليه من ثم أن يعي درس الأمس ويلقنه هو ودرس اليوم للجيل الجديد، خاصة وأن حسنة زوجة مصطفى سعيد وأم ولديه كانت تحمل للراوي شيئا من الحب الدفين، كما أنها رفضت وصاية ود الريس المسنّ المزواج على ولديها حينما أجبروها على الزواج منه، فقتلته وقتلت نفسها مفضلة هذا المصير الذي اختارته على أن تكون حرثا لود الريس بما يمثله من جيل قديم متخلف يحمل قيما ومفاهيم تحرص السودان الجديدة على التخلص منها.

استغل الطيب صالح هذه القضية التي ترددت كثيرا في الأدب الروائي الغربي، وحاول أن يوظف ما تحمله من غربة مادية في تحريك غربة مصطفى سعيد الوجودية، وتصبح بهذا رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" من خلال شخصية مصطفى سعيد عالما غريبا حزينا خاليا من المعنى بالرغم من المحاولات التي تبذل لصنع أشياء ذات قيمة.

**أهم المراجع المعتمدة:**

- السعيد الورقي: "اتجاهات الرواية العربية المعاصرة"

- صلاح صالح: "سرديات الرواية العربية المعاصرة"

- مجموعة مقالات على الأنترنيت